التداولية عند علماء الأصول – الشوكاني أنموذجا–

The pragmatics of the scholars of assets - Al-Shawkani as a model

الباحثة: منى بوشموخة

جامعة مُحَمَّد الصديق بن يحي –جيجل (الجزائر)

mouna8bouch@gmail.com

الباحث: ناصر موسى

جامعة الشاذلي بن جديد– الطارف (الجزائر)

moussanacer87@gmail.com

ملخص:

اهتم الإنسان باللغة منذ قديم الزمان، وظل اهتمامه بها يتزايد من جيل إلى آخر حتى أصبح لها علم قائم بذاته، له مناهجه ومصطلحاته ورواده، وقد تفرع عن هذا العلم عدة نظريات تطورت هي الأخرى لتصير علوما لكل منها موضوع يختلف عن غيره، والتداولية هي أحد فروع اللسانيات وهي دراسة اللغة أثناء الاستعمال وربطها بالسياقات التي وردت فيها . ولأن العلماء العرب قد اعتمدوا على اللغة في كل علومهم؛ فقد وجد علماء اللغة المحدثون علاقة بين النظريات اللسانية الحديثة وبين مختلف العلوم العربية القديمة (التفسير، البلاغة، النقد، علم الأصول ...) وبما أن الشوكاني أحد أبرز علماء الأصول الذين تمكنوا من اللغة؛ فإن دراسة مِؤلفاته والبحث فيها عن ملامح التداولية أولى وأوجب.

الكلمات المفتاحية: التداولية، السياق، النص، علم الأصول، الشوكاني.

Abstract:

Man has been interested in language since ancient times, and his interest in it has been increasing from generation to generation until it has become a science of its own, with its own methods, terminology,

and pioneers. Several theories have branched out from this science that have also developed to become sciences, each of which has a different topic from others, and pragmatics is one of the branches Linguistics is the study of language in use and linking it to the contexts in which it is mentioned. Because Arab scholars have relied on language in all their sciences; Modern linguists have found a relationship between modern linguistic theories and the various ancient Arabic sciences (interpretation, rhetoric, criticism, science of origins...) and since Al-Shawkani is one of the most prominent scholars of origins who mastered the language; The study of his writings and research on the features of deliberation is first and necessary

Keywords :pragmatics، context, text, origins science, Shawkani.

تمهيد:

عنيت اللسانيات بدراسة اللغة، وتفرع عنها عدد من النظريات اللسانية التي أضحت علما قائما بذاته له موضوعه ومنهجه ومفاهيمه الخاصة به، ومن هذه النظريات نجد: التداولية التي تقوم على دراسة اللغة أثناء الاستعمال الفعلي، هذه الأخيرة التي تعد ملتقى تجتمع فيه كل العلوم اللسانية.

وبالرجوع إلى التراث العربي نجد أن العلماء العرب في مختلف العلوم من نحو وبلاغة وتفسير وأصول قد تضمنت مؤلفاتهم ملامح الدراسة التداولية، ومن أبرز الأصوليين العرب نجد العلامة **"الشوكاني"**

وبناء على ما سبق نجد أنفسنا أمام إشكالية رئيسة مفادها: ماهي ملامح التداولية عند "الشوكاني"؟

والتي تتفرع بدورها إلى عدد من التساؤلات هي:

مامفهوم التداولية؟

ماهي أنواع التداولية؟

ماهي أسس التداولية؟

ماهي التداولية عند علماء العرب؟

1/ مفهوم التداولية:pragmatique

تتفق جل المعاجم اللغوية العربية على تحديد مفهوم التداولية: <<تداولنا الأمر أخذناه بالدول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر... ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة، وتداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاونا نفعل هذا مرة وهذا مرة أخرى>> [1]؛ فالتداول لغة يعني التحول وعدم الثبات والانتقال من مكان لآخر أو من حالة لأخرى.

كما عرفت التداولية في "معجم اللسانيات وعلوم اللغة" على أنها: <<جانب من جوانب اللغة يهتم بملامح استعمالها (نفسية المتكلمين، رد فعل المستعملين، الطابع الاجتماعي للخطاب، موضوع الخطاب، بمقابل الجانب التركيبي (المميزات الشكلية للأبنية اللغوية) والدلالي (العلاقات بين الوحدات اللسانية والعالم)>>؛[2] أي أن التداولية تهتم بالاستعمالات الخارجية للغة؛ حيث تركز على السياق والجوانب التركيبية والدلالية.

أما من الناحية الاصطلاحية؛ فقد تعددت تعريفات التداولية بين اللغويين والباحثين في هذا المجال؛ حيث عرفها (**ماري دبير**) و(**فرونسوا ريكاناتي**) بأنها: <<دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شهادة في ذلك على مقدرتها الخطابية>>؛[3]معنى ذلك أن التداولية هي دراسة اللغة في الاستعمال.

ويعرفها الدكتور (**مسعود صحراوي**) بقوله: <<مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه وطرق وكيفية استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها "الخطاب" والبحث عن العوامل التي تجعل الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث عن أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية...الخ>>[4]؛ فالتداولية حسبه في علم متشعب ومتعدد الاتجاهات.

ويقصد **بالمنهج التداولي**: << تيار نشأ بامتزاج وتقاطع مجموعة كبيرة من الأفكار والنظريات التي تتفق فيما بينها على الطابع الاستعمالي للغة، مما يجعل من ايجاد تعريف دقيق وواضح المعالم لمصطلح التداولية أمرا صعبا جدا. >>[5]

2/ أنواع التداولية:

يقسم الدكتور (**محمود أحمد نحلة**) التداولية إلى ثلاثة أقسام، يحددها كالآتي:[6]

*__التداولية الاجتماعية:__ تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي.

*__التداولية اللغوية:__ (__أي اللسانية__) تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية.

*__التداولية التطبيقية:__ وتعني نفس الأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة اتصاليا.

3/ أسس التداولية:

تقوم التداولية على ثلاث مفاهيم أساسية، تتمثل في:[7]

- **مفهوم الفعل:** حيث يتجاوز مفهوم الفعل في التداولية مفهوم تمثيل العالم وإنتاج ألفاظ دالة على المعاني إلى القيام بفعل وممارسة التأثير من خلال استعمال اللغة.
- **مفهوم السياق:** يقصد به الموقف الفعلي الذي توظف فيه الملفوظات والمتضمن بدوره كل ما يحتاجه لفهم وتقييم ما يقال.
- **مفهوم الكفاءة:** يعد مفهوم الكفاءة اعتماد التداولية لاستعمال اللغة في السياق، أو هو حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق، وبناء على ذلك تتحدد كفاءة ومميزات المتكلم.

4/ التداولية عند علماء الأصول:

عرفت ملامح التداولية عند العلماء العرب منذ القدم؛ إذ كانوا السباقين في تتبع المنهج التداولي ومعرفة أصوله، وهو ما يؤكده الدكتور (**حمد سويري**) بقوله:<<إن النحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأروبيا؛ فقد وظّفت المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة>>[8]؛ ومنه فإن التداولية عند العلماء العرب في التراث تختلف عن التداولية في مفهومها اللساني الحديث بوصفها علما قائما بذاته له منهجه ومصطلحاته ومفاهيمه الخاصة به، في حين أن التداولية عند الأصوليين تهتم بالاعتبارات اللغوية التي اتخذوها أداة لتوجيه دلالة من الدلالات في نصوص القرآن والسنة واستنباط حكم من الأحكام.

وقد صنف الدكتور(**مسعود صحراوي**)الاعتبارات اللغوية في البحث الأصولي إلى ثلاثة أنواع، وهي[9]

- **النوع الأول:** يتناول القضايا الدلالية الصريحة في كتب الأصوليين، وأمر هذا النوع يسير لوضوحه ولتعبير العلماء عنه صراحة، هذا النوع يتمحور حول القضايا المتعلقة بألفاظ القرآن والسنة النبوية، كالبحث عما يدل عليه سياق الخطاب من إيماء وإشارة وتنبيه وفحوى ومفهوم.
- **النوع الثاني:** الذي يشمل القضايا والمسائل النحوية كما تصورها الأصوليون وخالفوا بها آراء النحاة المعتادة أو وافقوها، واهتدوا إلى كثير من الحلول الموفقة والناضجة لبعض المسائل النحوية، ولاسيما تلك التي فاتت النحاة.
- **النوع الثالث:** وهو مايمكن تسميته **"المنحى التداولي"** والذي نعني به كيفية استثمارهم للمفاهيم والمقولات التداولية ك **"نظرية الأفعال الكلامية"** التي بحثوها ضمن نظرية **"الخبر والإنشاء"** أثناء بحثهم عن الدلالات وعن الطرق التي يتخذها النص لإفادة معنى أو لصناعة أفعال دينية... وكيفية تعاطيهم بالأساليب اللغوية والأغراض الإبلاغية التواصلية المنبثقة منها.

مما سبق نجد أن الأصوليين قد اهتموا _ من جهة التداولية_ بدراسة ما أهمله وفرط فيه الكثير من النحاة؛ وذلك من خلال فهمهم لطرق تأليف الكلام وفهم مقاصده وأوجه استعمالاته وما يطرأ عليه من تغيرات تؤدي إلى تغير المعاني.

5/ ملامح التداولية عند "الشوكاني":

من العلماء الذين ذاع صيتهم في علم الأصول نجد العلامة (**مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله بن الحسن بن مُحَمَّد بن صلاح بن ابراهيم بن مُحَمَّد العفيف بن مُحَمَّد بن مرزوق الشوكاني**) الذي ولد يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة (1173هـ) بمحل هجرة شوكان، نشأ في صنعاء في بيت من بيوت العلم والثقافة؛ فقد كان والده من العلماء الذين تولوا قضاء صنعاء.[10]

له العديد من المؤلفات المطبوعة رحمه الله، من بينها:[11]

*اتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر الذي جمع فيه أسانيده.

*إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائح على التوحيد والمعاد والنبوات.

*إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول.

وقد توفي سنة (1250هـ) عن عمر يناهز 77 سنة.

وتظهر ملامح التداولية في مؤلفات (**الشوكاني**)فيما يلي:

أ/ التخصيص:

بدأ (**الشوكاني**) مقدمته بقوله: <<إياك نعبد، وإياك نستعين، يا من هو المحمود المشكور على الحقيقة؛ إذ لا منعم سواه، وكل نفع يجري على يد غيره فهو الذي أجراه، وكل خير يصل إلى بعض مخلوقاته من بعض فهو الذي قدّره وقضاه>> [(12)]؛ فقد خصص (**الشوكاني**) العبادة لله وحده عز وجل، وقدم المعمول (إياك) على العامل، وهو ما يدل على الحصر، فالله حصر العبادة فيه وحده سبحانه وتعالى دون غيره، وجعلها مقتصرة على طاعته وحده، وأنه واجب علينا أن نطلب العون والمساعدة منه تعالى فقط في كل أمورنا وانشغالاتنا وأحلامنا، وأنه الوحيد القادر أن يحقق لنا مبتغانا ومانريد ونرغب في تحقيقه والوصول إليه، وبيده الأمر كله، هو الذي يقدر الخير والشر بقضائه وقدره.[(13)]

ب/ الحجاج:

ويقصد بالحجاج <<تفاعل بين المتكلم والمتلقي؛ فغاية الأول التأثير في الثاني بأجمل الألفاظ وأروع الأساليب وأرقى الخطابات؛ وذلك لتبرير موقف أو الدفع بالمتلقي إلى القيام بعمل ما، أو الاتفاق معه، ومتى كان المتكلم قادرا على إقناع المستمع كان فعله الحجاجي ناجحا وموفقا>>[(14)]

وقد تناول (**الشوكاني**) أمر البسملة التي اختلف فيها علماء الأصول أهي آية في كل سورة ام تحسب في بداية سورة الفاتحة كآية رغم أنها بسملة.

وقد بنى (**الشوكاني**) رأيه في هذه المسالة على عدة حجج منطقية لا تقبل أي نقاش؛ وذلك بتفسيره للمواقف المختلفة في القضية.[(15)]

حيث بدأ كلامه بلفظة (**الحق**) والتي تعني الثبوت والوجود باتفاق أهل العلم والاختصاص على ثبوت البسملة في خط المصحف الشريف في أوائل السور، ولم يعارض في ذلك من لم يثبت كونها من قرآن من القراء أو غيرهم[(16)]

أما الحجة الثانية التي بنى عليها (**الشوكاني**) موقفه هي موافقة البسملة للوجه الإعرابي والمعنى العربي؛ أي لا تخالف القراءات السبع التي أنزل عليها القرآن الكريم، إضافة إلى التقرير والجزم <<بأنها ليست من القرآن نزلت فقط للفصل بين سوره، كذلك دعوة كونها آية، وآية من الفاتحة، مع التسليم بوجودها في الرسم في أول كل سورة فمن الفاتحة، مع التسليم بوجودها في الرسم في أول كل سورة فإنها دعوة مجردة من أي دليل مقبول تقوم به الحجة>>[17]

ج/ الخبر:

***التقرير والتأكيد:**

يؤكد (**الشوكاني**) بصفة قطعية على أن القرآن الكريم يتضمن ألفاظا من مختلف لغات العالم بقوله: <<ومن أراد الحقيقة فليبحث في كتب التفسير، في مثل: المشكاة والإستبرق والسجيل والقسطاس والياقوت وأباريق والتنور>>[18]معنى كلامه أن القرآن الكريم لا يتضمن فقط الكلمات باللغة العربية التي أنزل بها، بل يتضمن ألفاظا ومصطلحات دخيلة عن اللغة العربية بكل اللغات (**الفارسية، السريانية، الرومية، الهندية**...)

وفي مثال آخر عن الخبر، يعرف (**الشوكاني**)القرآن لغة واصطلاحا.

أما التعريف اللغوي: <<فالقرآن في اللغة مصدر يعني القراءة>>[19]

والتعريف الاصطلاحي: <<كلام الله المنزل على الرسول ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلا متواترا، وهو ما أكده جمهور العلماء قديما وحديثا فلا يخالف فيه مخالف ولا يعارض فيه معارض>> [20]

كما يؤكد (**الشوكاني**) أنّ ما صح إسناده باحتمال رسم المصحف واستقام وجهه في اللغة العربية فهو من القراءات السبع المنصوص عليها، وإن احتمل بعضها دون بعض هي قراءات شاذة لها حكم إخبار الآحاد في الدلالة علة مدلولها، وأما مالم يحتمل الرسم ولا النطق به ليس بقرآن ولا منزل منزل الآحاد.[21]

وظف (**الشوكاني**)حروف التوكيد أداة (أنّ) عدة مرات لتوكيد الخبر وإفادة القارئ أو المتلقي بصحته ويقينه ودرئ الشك.

***السنة النبوية:**

بدأ (**الشوكاني**)(**مقصد السيرة النبوية**) في الفقرة الأولى بفعل الأمر (**اعلم**) وذلك بهدف التأثير في المتلقي المسلم؛ وذلك لتبيان أهمية موضوع السنة النبوية الشريفة، وليؤكد أنها شرح وتفسير للقرآن الكريم وأنها مصدر من مصادر التشريع بعده؛ حيث يقول في هذا الصدد: <<الحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورية دينية، لا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام>>[22]

والجزء الثاني ربط (**الشوكاني**)الحديث السابق بعدم صحته مقارنة بمجموعة من الآيات القرآنية وعدم مطابقته لها بحسب السياق ومقام التواصل.[23]

د/ الأفعال الإنجازية المباشرة:

صنف (**سيرل**) الأفعال الإنجازية إلى صنفين:

- الفعل الإنجازي المباشر.
- الفعل الإنجازي غير المباشر.

يقصد بالفعل المباشر عند (**سيرل**)بأنه: <<الفعل الذي يطابق قوته الإنجازية مراد المتكلم؛ أي أن يكون القول مطابقا للفعل حرفيا، ويتمثل في معاني الكلمات في الجملة، ويستطيع المتلقي أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معا>>[24]

ومثال ذلك عند (**الشوكاني**) هو ما جاء به في كتابه "**إرشاد الفحول**":<<والمراد بالأحرف السبعة: لغات العرب، فإنها بلغت سبع لغات اختلفت في قليل من الألفاظ واتفقت في غالبها، فما وافق لغة من تلك اللغات فقد وافق المعنى العربي والإعرابي>>[25]

الأحرف السبعة: هي سبع لهجات متفرقة مثل: لهجة قريش، لهجة كنانة، لهجة هذيل... منتشرة في الشبه الجزيرة العربية.[26] وغرض نزولها بهذه الأحرف السبعة هو التبشير على الأمة في قراءتها للقرآن الكريم.

مثال آخر يوضحه (**الشوكاني**) حول الأفعال الإنجازية:

قيل في السنة: <<هي العبادات النافلة، وفي الأدلة ما يصدر عن النبي ﷺ من غير القرآن من قول وفعل وتقرير>>[27]

حوصلة:

- تعد التداولية من أهم النظريات اللسانية الحديثة والتي تهتم بدراسة اللغة أثناء الاستعمال الفعلي.
- تنقسم التداولية إلى ثلاثة أنواع: التداولية الاجتماعية، التداولية اللغوية، والتداولية التطبيقية.
- تقوم التداولية على ثلاث مفاهيم أساسية: مفهوم الفعل، مفهوم السياق، ومفهوم الكفاءة.
- ظهرت التداولية كعلم قائم بذاته في العصر الحديث ذلك أنها فرع من فروع اللسانيات الحديثة، إلا أن هنالك ملامح للدراسة التداولية نجدها عند العودة إلى التراث العربي.
- وجدت ملامح التداولية في معظم العلوم من نحو وتفسير وبلاغة وأصول.
- يعد (**الشوكاني**)أحد علماء الأصول الذين تضمنت مؤلفاتهم عددا من المفاهيم التي تتوافق ومفاهيم التداولية الحديثة.

الهوامش:

((1))ابن منظور: لسان العرب، مادة (دول) دار صادر، بيروت، مجلد11، ط3، 1994، ص252-253.

((2)) Dictionnaire de linguistique et sciences de langue librairie la rousse 1994 p375 Jhon Debois et Al

((3)) فرانسواز ارمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 1997، ص8

((4)) مسعود صحراوي: التداولية عند علماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص15.

((5)) علجية آيت بوجمعة: التداولية: دراسة في المجالات والفروع، ص160.

((6)) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 2002م، ص15.

((7))نواري سعداوي أبوزيد: في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع،سطيف الجزائر، ط2009،1م، ص 26-30.

((8))خليفة بوجادي: التفكير اللغوي التداولي عند العرب مصادره ومجالاته، جامعة سطيف، ص2.

((9)) مسعود صحراوي. التداولية عند علماء العرب، ص130-131.

((10)) مُحَمَّد بن علي الشوكاني: ينظر إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق وتعليق: أبي حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، ج1، ط1، 1421هـ-2000م، ص 14.

((11)) المرجع نفسه، ص 15.

((12)) المرجع نفسه، ص53.

((13)) اليزيد بهلول وفرحات بن عبد العزيز: التداولية عند علماء الأصول_الشوكاني أنموذجا_ مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي، تخصص: علوم اللسان، إشراف الأستاذ: عطاء الله بوسالمي، جامعة عبد الرحمن ميرة، 2017/2016، ص65.

((14)) المرجع نفسه، ص65.

((15)) المرجع نفسه، ص66.

((16)) المرجع نفسه، ص66.

((17)) مُحَمَّد بن علي الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص176.

((18)) المرجع نفسه، ص181.

((19)) المرجع نفسه، ص170.

((20)) المرجع نفسه، ص 171.

((21)) اليزيد بهلول وفرحات عبد العزيز: التداولية عند علماء الأصول_الشوكاني أنموذجا_ ص69.

((22)) مُحَمَّد بن علي الشوكاني. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص

((23)) اليزيد بهلول وفرحات عبد العزيز: التداولية عند علماء الأصول_ الشوكاني أنموذجا_ ص70.

((24)) المرجع نفسه، ص78.

((25)) مُحَمَّد بن علي الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص186.

((26)) المرجع نفسه، ص186.

((27)) المرجع نفسه، ص186.